

صورة الإسلام والمسلمين في وسائل

الإعلام البولندية

قبل وبعد أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١

أغاتا نالبورزيك (وارسو)

تعريب: دلال زراقط

مقدمة:

وسائل الإعلام في بلد شيوعي سابق

يعتبر العام ١٩٨٩ بداية تحرر وسائل الإعلام البولندية بعد رفع الرقابة الحكومية عنها. فمنذ ذلك الحين أصبح بإمكان هذه الوسائل عرض وكتابة وقول ما تشاء. كما وسجل هذا العام أيضاً نقطة تحول في طريقة تقديم صورة الإسلام والمسلمين من خلال الإعلام البولندي؛ ولأن الدول الإسلامية تنتمي إلى ما يدعى بالعالم الثالث، والذي كان يعتبر صديقاً وحليفاً للنظام الشيوعي، فقد كان ممنوعاً أن تصوّر هذه الدول بطريقة غير لائقة. ثم تبدل الوضع مع بداية التسعينات بتحرر الخطاب السياسي وتطور الصحف والمجلات الخاصة والبرامج التلفزيونية. وهناك أيضاً جانب آخر لا بد من الالتفات إليه وهو أنه بعد العام ١٩٨٩ بدأت الوسائل الإعلامية البولندية تتجه نحو الاهتمام بكسب الأموال، فترتب على ذلك دفع العديد من الصحفيين للكتابة حول المرأة المسلمة في اليوم الأول وعن فيضان في الهند في اليوم الثاني وهكذا. متوقعين جذب اهتمام الجمهور عبر الأخبار الصاخبة والبرامج أو النصوص الملفتة.

* باحثة من بولندا.

كيفية تناول الإسلام في الإعلام قبل ٩/١١

بعد العام ١٩٨٩ بدأت صورة الإسلام والمسلمين بالتغير عن تلك التي كان يقدمها القادة والسلطات الشيوعية، فمنذ ذلك الحين بدأت الأسس والدوافع والتوجهات الأساسية تجاه الإسلام والمسلمين المطروحة في وسائل الإعلام العالمية مثل: مصير المرأة المساوي في العالم الإسلامي^(١)، فرضية ميل المسلمين للظلم واللجوء السريع للعنف، كره المسلمين المزعوم للمسيحية وأوروبا (التهديد الإسلامي الشهير) - كل هذا على سبيل المثال لا الحصر - بدأت هذه الفرضيات تجد مساحة لها في التقارير الصحفية. فقد شكّلت الأخبار والتقارير تبعاً للمشاعر السائدة متضمنة العديد من الأخطاء والنقاط الخلافية. فمنذ بداية تحرر الخطاب السياسي أصبح بالإمكان ملاحظة ردة فعل سلبية تجاه الماضي بما فيه الصورة الإيجابية للعرب والدول العربية والإسلام والمسلمين والعالم الثالث بالإجمال. فقد تفاجأ المتخصصون بالدراسات العربية والإسلامية بالاتجاه المضاد للإسلام في الإعلام البولندي.^(٢)

فحتى الحادي عشر من أيلول ٢٠٠١ كانت القضايا المتعلقة بالمسلمين تظهر في وسائل الإعلام البولندية بشكل عرضي، ومن ثم بدأت الوتيرة ترتفع بالتزامن مع القضايا والأحداث العالمية المرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر بالإسلام كقضية سلمان رشدي أو الحروب التي تدور في البلدان الإسلامية وخاصة حرب الخليج أو الحرب في يوغوسلافيا السابقة أو الثورة الأفغانية.

وإن الموضوعات نفسها المتعلقة بالمسلمين المطروحة في الإعلام البولندي نجدها مطروحة أيضاً في غيره من الدول الأوروبية.^(٣)

رغبة المسلمين المزعومة بالعنف وميلهم لنشر معتقداتهم باستخدام - القوة (السيف) - كل أشكال التعصب والإرهاب؛ وخصوصاً بتلازم استخدام هاتين الكلمتين؛ فلم تكن وسائل الإعلام، من خلال الكتابة عن تشدد المسلمين، تقرر آراء وتصرفات المسلمين المتزمّتين بآراء وتصرفات مماثلة لدى متشددين من مجموعات دينية أخرى. ففي شمال أيرلندا أو الهند أو إسرائيل مثلاً كثيراً ما تستخدم كلمة الجهاد أو الحرب المقدسة عند الحديث عن المسلمين فقط وبشكل خاص. وكأن لا حروب مقدسة شنت من المسيحيين ضد أفراد أو مجموعات دينية أو إثنية.^(٤)

الرغبة في المواجهة والصراع مع المسيحية (الممثلة في هذه الأيام بالغرب والعالم والحضارة الغربية) - أسطورة التهديد الإسلامي وكره المسيحية منذ نشأة الإسلام: «فكرة اجتثاث المسيحيين من الشرق بدأت مع نشأة المعتقد الإسلامي»؛ تقرير حول العام ٢٠٠٠:

«خلال هذه السنة قُتِلَ المسيحيون تحت شعار الحرب المقدسة - الجهاد - في معظم الدول الإسلامية»، ثم أعطيت تفاصيل حول الوضع في أندونيسيا فقط (التعميم)؛ «يُحرم على المسيحيين تعليم اللغة العربية؛ لأنها لغة النبي»؛ لا يتجاوب المسلمون مع المبادرات المسيحية الداعية للحوار الديني، وفقدان أي مبادرات إسلامية متعلقة بهذا الموضوع.

موقع المرأة المسلمة في المجتمع الإسلامي والأحكام المسبقة المتعلقة بهذه المسألة: فالمرأة المسلمة مكروهة ومجبرة، مقموعة، حيث الحجاب يخفي وجهها (حتى في سوريا وإيران كل النساء يجبرن دائماً على تغطية وجوههن في الحياة العامة والطرق) فالمرأة ليس لديها أي حقوق (إذ لا يوجد قانون في الإسلام أو بالأحرى إن الدين يحل محل القانون في الإسلام)، فالدين دائماً يُتهم عند وجود أي خلل في حياة المسلمات وحتى في عدم المساوات بين المرأة والرجل.

كما وأن مشكلة النساء في الإسلام لا تقتصر على كونها مشكلة دينية فحسب بل تتعداه لكونها مسألة اجتماعية في المقام الأول. فالدين يستخدم من قبل المجتمع الذكوري لإبقاء النساء بعيدات عن الحياة العملية، بمخاطرها ومفاجأتها.

وحدة العالم الإسلامي

يتعاطى الإعلاميون مع العالم الإسلامي كمجتمع توحيدي حيث يلعب الدين فيه الدور الأساس، ونحن نعي تماماً أنه لا يوجد عالم إسلامي موحد! فهذا العالم يتشكل من دول وشعوب وجماعات مختلفة متوزعة على القارات الخمس وهي تمثل بدورها تيارات إسلامية متنوعة ومدارس قانونية متفاوتة المستويات الثقافية (التعليمية).

تخلف الإسلام والعالم الإسلامي

وقد استخدمت الكلمات التالية للتعبير عن هذا الاعتقاد: «صوت المؤذن أو دندنة المؤذن»، شرب الشاي بكثرة، مصلون بجوارب ممزقة، عدم وجود بلد إسلامي واحد ناجح.

في محاولة لشرح كل التطورات والظروف في العالم الإسلامي كإشارات ونتائج للتطرف الديني وليس لقضايا اجتماعية أو سياسية مثلاً، يرى الصحفيون أن الدين هو السبب الوحيد لعدم مساواة النساء وفقدان الديمقراطية في العالم الإسلامي (إظهار الاهتمام الإعلامي بحقوق الإنسان في الدول الإسلامية بشكل خاص دون ذكر أي جملة تتحدث عن أن معظمها محكوم من قبل أنظمة استبدادية ديكتاتورية).

الرغبة في تقديم آراء أي شخص كمثل للدين الذي ينتمي إليه، والافتراض الخاطيء بأن هذا الشخص يمتلك المعرفة الكافية بهذا الدين أو على أنه يجسد الرؤى الخاصة بهذا الدين - وهذا مثل آخر عن الرغبة في التعميم - .

خلافاً لأوروبا الغربية لم تكن هجرة المسلمين إلى أوروبا والعدد المتزايد للمسلمين على قارتنا لم تكن هذه الهجرة موضع نقاش في وسائل الإعلام البولندية قبل ١١ أيلول ٢٠٠١. لم تكن بولندا بلداً جاذباً للمهاجرين من العالم الإسلامي قبل هذا التاريخ، لذا لم تكن هجرة المسلمين تهم بلدنا. كان يوجد في بولندا أقلية مسلمة (١٠,٠٠٠-١٣,٠٠٠) فلم تسترع اهتمام الشارع. وقد تشكلت هذه الأقلية من مجموعتين: مجموعة منظمة، المسلمون البولنديون التقليديون، التتار (حوالي ٣٠٠٠-٥٠٠٠ شخص قطنوا في بولندا لـ ٦٠٠ سنة الأخيرة)، والمهاجرون (طلاب حاليون أو سابقون، لاجئون وتجار - أغلبهم عرب وبعضهم بوسنيون وشيشانيون وأتراك وأفغان وباكستانيون وغيرهم). فبدأ الجدل الفرنسي (الحجاب، غطاء الرأس الإسلامي في المدارس الرسمية في ١٩٨٩) أو البريطاني (ديون المدارس الإسلامية للدولة في ١٩٩٠) مواضيع بعيدة عن اهتمامات الشارع البولندي.^(٥)

هناك تاريخ من الحروب بين بولندا والمسلمين، الأتراك والتتار. نقرأ عن ذلك في الروايات، ونشاهده في أفلامنا ونتعلمه في كتبنا المدرسية. فالكلمة يعرف الإسلام، والكل يمكنه أن يكون متخصصاً في هذه المسألة بعد رحلة لأسبوعين إلى أي بلد إسلامي. من السهل الكتابة عن التهديد الإسلامي، الحريم، موقع المرأة المسلمة، قساوة المحاربين المسلمين، دور (السيف) في نشر الدين الإسلامي - كلنا يعرف ذلك في بولندا.

فالمسلم هو «الآخر» ولكن هذا «الآخر» ليس بعيداً أو مجهولاً.

فقد كان على الشعب البولندي أن يتعاطى أو يحارب الإسلام والمسلمين لقرون، حتى على الأرض البولندية، لذا فإن مشكلة التعايش مع الإسلام ليست جديدة. فهذه مشكلة

قديمة ويُنظر إليها من منظار مختلف عن ذلك السائد في أوروبا الغربية. فبخلاف الأوروبيين الغربيين لم يختبر البولنديون التعاطي الاستعماري مع المسلمين. فظهور المهاجرين المسلمين في بولندا في القرن العشرين له دلالة أخرى؛ لأن الدول الأوروبية الغربية تواجه للمرة الأولى أقلية مسلمة فاعلة على الأرض الأوروبية.

نماذج من الأخطاء الشائعة:

هناك العديد من الأخطاء في التقارير والبرامج التي تتحدث عن الإسلام مثل: المسلمون يصلون أربع مرات في اليوم، الزواج المؤقت بدعة ابتدعتها المراجع في إيران في نهاية القرن العشرين، مكة هي أرض مقدسة لدى السنة فقط، لا يوجد قانون في الإسلام، محرم على المسلمين الزواج بالمسيحيين. وحول نظرة الإسلام إلى المسيحية، فقد اقتطف الصحفيون مقاطع تتعلق بالوثنية من القرآن وطبقوها على المسيحيين، فقدان المعرفة اللازمة بهذه الأمور تجلت من خلال تكرار وتضخيم الفرضيات والنظريات الخاطئة القائمة. وجاهل الصحفيين بالموضوع أدى إلى إغفالهم استشارة الخبراء بهذا المجال، فترتب على ذلك جمع المعلومات السلبية وغير الدقيقة. فعامل ضغط الوقت الذي يلقي بثقله على كاهل الصحفيين، أدى إلى إرغامهم على الاطلاع على المصادر المتوفرة وهي ثانوية بمعظمها وتفيض بالفرضيات والأحكام المسبقة المتعلقة بالمسلمين.

من الملفت أن تكون معظم المواضيع المذكورة أعلاه موجودة في كتابات علماء اللاهوت المسيحيين المعنيين بالجدل اللاهوتي مع الإسلام والمسلمين منذ زمن بعيد، وكذلك في أعمال المستشرقين القدامى والكتّاب الرومنسيين والشعراء والرسامين والنحاتين. يعتبر علماء اللاهوت المسيحيون الأوائل أن الجنس والعنف هما صفتان أساسيتان يتصف بهما الإسلام، فقد صوروا على سبيل المثال استخدام القوة كمكون أساسي للدين الإسلامي، ومن ثم كإشارة تبرهن خطأه بالتأكيد.^(٦) وقد نشر المسيحيون هذه الرؤية في أوروبا، ورفعوا من شأن مبادئ مماثلة عن الصليبيين في الوقت عينه. فقد عُني رجال اللاهوت والكتاب الغربيون بالمسائل الأخلاقية والحياة الاجتماعية الإسلامية باهتمام بالغ، وعلى وجه الخصوص الأخلاقية الجنسية (فقد أجاز محمد تعدد الزوجات، لكسب المؤمنين كما يقال). وقد درست حياة النبي من هذه الناحية.^(٧) فقد كان هذا الموضوع موضع إثارة مخيلة الكتّاب (مثلاً تساءلوا عن عدد الزوجات والخليلات المسموح به للمسلم ٤-١٠ أو ١٠٠؟ فقد كان معلوماً لدى الجميع أن المسلمين يستمتعون دائماً بممارسة الجنس بقدر

عدد النساء المسموح لهم بالقانون) فقد استخدم الكتّاب والفنانون الرومنسيون الخلفية الإسلامية لتجسيد خيالهم (النساء في بيت الحريم تنتظرن السلطان عراة تتحركن بثقل وشهوانية أو تستلقين بكسل في السرير، إلخ...).

صورة المسلمين في الإعلام البولندي بعد ١١ أيلول:

إن أحداث ١١ أيلول ٢٠٠١ المأساوية أثرت على الصورة وخاصة الطريقة التي تتم فيها تقديم الإسلام والمسلمين في الإعلام البولندي.

بعد هذا اليوم كان هناك فيض في النصوص والنشرات الإذاعية والتلفزيونية حول الإسلام والمسلمين. فالتكتل (أو الترابط) بين «الإسلام»، «التعصب» و«الإرهاب» انتشر في كل مكان وتكرر مراراً وتكراراً. لذا بعد مرور موجة الخوف والكره الأولى، نشرت العديد من النصوص المرضية وبُث الكثير من البرامج الجيدة. كل صحيفة أو مجلة كانت تقدم أي مادة حول الإسلام كانت تصف تاريخه وخصائصه. فقد انتشرت المعرفة بالإسلام بشكل أوسع. ما أدى إلى أخطاء وخلافات أقل فيما خص الإسلام والمسلمين في وسائل الإعلام البولندية باليوم.

من هنا يمكننا القول إنه وبشكل عكسي بعد ١١ أيلول ٢٠٠١ اتسعت معرفة الصحفيين بالمسلمين ودينهم وانعكس ذلك على جمهور قراءهم. فأصبحوا يتناولون المسلمين بكتاباتهم باحترام أكبر، مهتمين بالظروف الاجتماعية - الاقتصادية وبأخذ آراء المختصين أكثر. حتى أصبح المختصون معروفين بالأسماء والوجوه عند الجميع لكثرة ما يستضافون؛ وأصبح مستحيلاً أو على الأقل متعسراً أن تكتب نصوص غير مدروسة بعناية أو فبركات قائمة على فرضيات ونظريات فقط وإذا حدث مثل هذه الأمور فإنها نادرة.

٤- خلاصات:

مما لا شك فيه أن بين الصحفيين البولنديين من يبذل الجهود لفهم الثقافة والدين والشعب الذي يكتبون عنه وتقديمهم بشكل محترم. ويترتب عليهم أولاً التعرف بشكل معمق ومقاربة حضارة أخرى، تاركين قيمهم وتصوراتهم وحضارتهم وراءهم، مهمة صعبة لكنها ليست مستحيلة كما برهن كتاب من مثل ريتشارد كابوشينسكي (Ryszard Ka-puscinski، وجيك جاغيلسكي (Wojciech Jagielski)، أو لغاستانيسلاوسكا (Olgastanis Lawaska).

ولكي نمنع تطور فرضيات جديدة حول الإسلام والمسلمين وخاصة بعد ١١ أيلول ٢٠٠١، فمن الضروري أن يعدل الإعلام الآراء السائدة الخاطئة وتبني استراتيجية دفاعية أي وضع طريقة لفهم المواضيع مدروسة بدقة وبعيدة عن الفرضيات أو الأحكام المسبقة. كما ويجب منع الاستهتار والتعميم بقدر المستطاع، والتأكيد في الوقت عينه على التنوع الاقتصادي والاجتماعي داخل وبين المجموعات والدول المعنية. فعند الكتابة حول تهديد إرهابي حقيقي يجب أن يعي الصحفي أن الإرهابيين هم جزء بسيط من المسلمين. معظم المسلمون أشخاص عاديون مثلنا. فيجب التفريق في الإعلام بين الحركات والمجموعات والتيارات الإسلامية المتنوعة والتأكيد على التنوع الفكري الموجود في العالم الإسلامي.

فتحسين ثقافة المراسلين حول هذا الموضوع خلال تدريبهم المهني يمكن أن يساعد إلى حد كبير في هذه العملية.

فالصورة التقليدية للإسلام والمسلمين في غاية الخطورة هذه الأيام^(٨) بحيث يكره الناس «الأخرين» لمجرد الاختلاف في الملبس، أو المظهر أو المعتقد. فهذه الصورة المشوهة للإسلام والمسلمين يمكن أن تكون أكثر خطورة في المستقبل حين يختار العديد من المسلمين بولندا، البلد الحديث العضوية في الاتحاد الأوروبي كمحل إقامة لهم.

كما ذكرنا سابقاً، فإن صورة الإسلام والمسلمين في الإعلام البولندي تحسنت بعد ١١ أيلول ٢٠٠١ وأصبحت أكثر دقة وواقعية. حتى أن بعض الصحفيين أقر باستحالة إجراء حوار بين الحضارات أو الأديان إذا لم يكن هناك معرفة عميقة واحترام متبادلين. فالحوار هو الحل الوحيد المتبقي لحل المشاكل المنبثقة عن التقاء الحضارات والثقافات في ظل عولة العالم.

أتهوامش:

- (١) لمزيد من التفاصيل راجع:
- (٢) الأستاذ جانوس دانكي (رئيس قسم الدراسات العربية والإسلامية، المعهد الشرقي، جامعة وارسو) لاحظ سنة ١٩٩٤: يجب أن تخاف بولندا من الإسلام فليست الصحافة الألمانية والإنكليزية أي في البلدان التي تواجهه، نظرياً، مشاكل أكبر مع المهاجرين والعالم الإسلامي، ليست بهذه الحدة.
- (٣) قارن بين مثل: واصف شديد، سجورد فان كونينغسفيلد صورة الإسلام والمسلمين السلبية في الغرب: أسباب وحلول (في) واصف شديد ومونينغسفيلد، الحرية الدينية وحيادية الدولة: موقع الإسلام في الاتحاد الأوروبي بيترز، لوفن ٢٠٠١ ص ١٧٤-١٩٤ فرانسيس غيلز مصوراً العالم الإسلامي في الإعلام الغربي، جورغن نيلسن سامي خساونه العرب والغرب: صور متبادلة، جامعة الإعلام الأردنية، عمان ١٩٩٨ ص ١٥-٢٨؛ إيفا - ماريا فون كمينتز، المسلمون بنظر الصحافة البرتغالية ١٩٧٤-١٩٩٩: التغييرات في المفهوم للإسلام (In:) واصف شديد، Sjoerd Van Koningsveld العلاقة الداخلية الثقافية الأقليات الدينية: المسلمون في الاتحاد الأوروبي Peeters, Leuven ٢٠٠٢ ص ٧-٢٦، Werner Rulf، الإسلام والغرب أحكام، أحكام مسبقة، مفاهيم سياسية مفكرة Muenster، Verlag .
- (٤) مثل الفاشيين الذين قتلوا العديد من الفلسطينيين في مخيمات صبرا وشاتيلا، ١٨-١٩/٩/١٩٨٩.
- (٥) حول القضايا الفرنسية والبريطانية راجع Lina Molokotos Lieder man التعددية في التعليم: نشر التفريع في الإسلام في المدارس الفرنسية والبريطانية، «العلاقات الإسلامية المسيحية»، ١١-١-٢٠٠٠، ص ١٠٥-١١٣.
- (٦) لمزيد من التفاصيل راجع: Bernard Lewis الإسلام والغرب منشورات أكسفورد نيويورك ١٩٩٣، ص ٦١؛ نورمان دانيل، «الإسلام والغرب»، ص ٣١ R.W.Soutlern آراء غربية بالإسلام في العصور الوسطى منشورات هارفارد ١٩٦٢.
- (٧) راجع مثلاً: جبل محمد بوين، صورة النبي محمد في الغرب، دراسة (Musr Mar goliouth and Watt المؤسسة الإسلامية Leicester ١٩٩٦).
- (٨) قارب بـ مثل: Steven Vertoi رهاب الإسلام والاعتقاد الإسلامي في بريطانيا - Yvonne Yaz (IN:) beck Haddad المسلمون في الغرب من الإقامة المؤقتة إلى المواطنة، منشورات جامعة أكسفورد ٢٠٠٢، ص ٢٢-٢٨.